المذبحة عام ١٩٣٦.. صيفاً لا شتاءً !

قصة بقلم مطاع صفدي

الذين ماتوا هذا الصباح لم يجدوا بعد مثواهم الاخير في القبور ، كما ان احدا من اهلهم لم يعثر على جثة من جثثهم .

وكان زقاق الحي طويلا ضيقا . وهذا المساء تكدست بين جداريه روائح الصمت والحر والظلام . ولم يبارح ساكن من سكان هذا الحي بيته . كان الزقاق متروكا لوحشته منذ ساعات الغروب الاولى . ولقد اغلقت دكاكين السمانة باكرا أيضا . والابواب التي اعتاد سكان الحي ان يدعوها مفتوحة لتيار الهواء ، رصت ، هذا المساء ، على اطاراتها ، واتحدت هكذا بالجدران ، حتى لم تبق ثمة ثغرة الا وامتلأت بالخشب والطين والزجاج والصمود المجهول .

أما سوادي الحي فانه تسكع قليلا في مدخل الحي . لم ير أمام الابواب كوم القمامة كما هي العادة . اغلق صندوقه ، من التنك ، وقفل راجعا . لم يكن واحدا من سكان الحي . ولكنه احس انه عليه ان يبتعد ويناى . فليس ثمة لبيت في الحي قمامة توضع أمام بابه . القمامات محشوة اذن في زوايا داخلية من البيوت . ولذلك فان ظلام هذه الليلة كان يهمي ببطء أسود مهيب ، كأن به خجلا غفلا . والحي هو بعد ، كبير ، كبير من المدينة الصحراوية الشمالية . واذ سكن ذلك الحي الكبير الكبير ، بدا أن المدينة كلها أضحت خرساء . عادت مجموعة من الاحجار الصفراء ، مكدسة وسط الصحراء هكذا ، بدون انسان .

والبيوت المغلقة لا تفعل شيئا هذا المساء . والابواب الخشبية القديمة تواجه تيارات الغبار من الصحراء المجاورة .. وتقوم في مكانها . وحجارة الزقاق ، تنبت في التراب مدببة ، ذات لمعة في وشي الظلام وهو يغلفها .

بعض اشباح من النسوة الملتفة بالسواد ينسحبن ازاء الجدران ، دونما صدى لخطواتهن . يقفن امام بعض الابواب المغلقة . ثم يفسر تجويف فاه . تختفي القامات السوداء وراءه .

وكومة كالقبة ، من الظل والصمت ، تنفتح فوق الحي الكبير الكبير، كله . والمدينة كلها ، تنوء تحت تلك القبة . وفي الشوارع العريضة المنتظمة في تلك المدينة ، حيث تمتد الارصفة باستقامة وجمال ، وحيث تغطي الارض طبقة من الاسفلت لا تنبت فيها أحجار مدببة ، في هذه الشوارع أحذية مصفحة بالرصاص ، تخبط على بلاط الارصفة . وبين أمتار وأمتار كومات من الحديد والسواد والفوهات تجثم ببلادة وشقاء ، وتنفث نارا أدخرتها من شمس ذلك النهار ، على ساكنيها في الداخل .

* *

الذين ماتوا هذا الصباح لم يجدوا بعد مثواهم الاخير في القبور ، كما أن احدا من اهلهم لم يعثر على جثة من جثثهم . وعاد الشيخ (علي) الى بيته بعد العشاء بقليل . كان جامع الحي فارغا من المصلين. ولقد وقف الشيخ علي مليا أمام آلة المكبر الصوتي ، فتحه ، نفخ فيه ، سمع النفخة بحفيف صارخ وهي تنتشر من أعلى المئذنة في الفضاء الصلد . وقف لحظات وهو يتأمل هذه الآلة العجيبة . والبيوت المغلقة، تحت ، بنوافذها المغلقة ، انتظرت أن تستمع الى صوت الشيخ على الضخم وهو يترامى في اجواء الحي . ولكنها سمعت نفخة تفح ، ثم ساد الصمت طويلا ، هو صمت التأمل ، ثم سمعت البيوت المغلقة آهة طويلة مخيفة من خلال المكبر . وبعد لحظات طويلة مديدة أيضا ، ارتفع صوت بشري لاول مرة ، خافت بدون تضخيم . سمعت البيوت المغلقة واجواؤها المعتمة ، أذانا بشريا لا يرن ولا يفرقع في الجو . كانت الفاظ (الله) مديدة ، سمعتها أصغر اذن في أبعد بيت دون مكبر .

ولقد خيل الى (فهد) وهو جالس القرفصاء في زاوية الغرفة الوحيدة من البيت أن البشر وأحجار الزقاق والسوادي البعيد ، يرددون جميعا دون ان يقولوا شيئا آهة أبيه الشيخ علي . وعندما فتح باب الغرفة ، نظرت نساء الغرفة الى الشيخ ، ثم أطرقن . ولكن (صالحة) الاخت الصغرى لفهد ، لكزت أخاها بطرف كوعها .. فارتفع صوت لاول مرة منذ ساعات الصباح :

ـ يابا .. هل أرجعت لهم مالهم القذر ؟

وقعد الشيخ بعد أن خلع حذاءه وتجاوز عتبة الغرفة ، ومسح لحيته :

ـ ان الله مع الصابرين .

ـ يابا .. هل أرجعت المال القذر ؟

وسمع صوت نهنهة يتصاعد من امرأة أخرى .. كان البكاء ما زال تخنقه أنفاسها الرتيبة . ولمع صوت (صالحة) بعراء أصهب :

ـ يابا .. مرت جمعة البارحة ولم تخطب فيها لاول مرة . يابا اعد لهم مالهم القذر . يابا .. لن يكفي هذا المال لجنازة أخي .. هذا ان أعطونا اياه .

وتتحول النهنهة في حنجرة المرأة الى الفاظ :

ـ (صبيح) ارتفع صوته فوق صوتك البارحة فاصفح عنه يا شيخ .. صبيح مات اليوم !

وتسارع (صالحة) بنبرة شرسة :

ـ لقد طلب منك أن ترفض ما يريدونه منك ..

وتقاطعها الام :

ـ أبوك ليس كبقية المشايخ ، انه لا يشرى ليكذب علنا ، لم يخطب البارحة أليس كذلك ؟

ويتمتم الشيخ وعيناه غارقتان في ظلام ما قبل العتبة :

ـ الله مع الصابرين . سيذهب ولدنا الى جنان عدن .

ولم يشعر أحد كيف استقام (فهد) وقطع مسافة الخطوتين بينه وبين أبيه ووقف على العتبة وهو يبحث عن نعله :

ـ سوف أبحث عن أخي ، سآتي به ..

وتمتمت الام :

ـ اننا ننتظره . ولكنه لن يعود .

ويمسك الشيخ بيد ابنه :

ـ صبيح مات ، صار جثة ، ما فائدة الجثة ؟ صبيح صعد عند ربه ، وأما الجثة فللتراب والدود .

ـ صبيح لم يمت . انه موجود . ونحن ننتظره .. سوف يرجع الينا .

ويحرر (فهد) يده من يد أبيه :

ـ سأذهب وآتي به ، أنا أعرف أين وضعوه هو ورفاقه .

ولكن الام تحاول الامساك به :

ـ لن يعطوك اياه ، سيقتلونك أنت الآخر ، ويقذفون بك الى بقية الجثث .

وتتجه صالحة الى أمها :

ـ كل الامهات في الحي ينتظرن الليلة جثث أبنائهن . عشرات من الشباب قتلن على الارض والتراب أمام المعامل.. وجرت جثثهن، وعفرت بالاقذار. ولا يعرف أحد أين رميت . كما لم تعرف الامهات مصير شهداء الخريف الماضي . ماذا يفعلن في البيوت هكذا ؟. يجب أن تخرج أمهات

القتلى غدا صباحا بمظاهرة ، وسوف تشترك الى جانبكن جميع نساء الاحياء الفقيرة .. وأما الامهات في الاحياء النظيفة ، فليس لهن أولاد يبكين عليهم .. لا يعرفن شرف الشهادة . غدا علينا أن نرجع شبابنا القتلى الينا ، لتخرج لهم جنازات الابطال .

وتردد الام بآلية :

ـ أولادنا لا يغطسون كالكلاب .. اين انت يا صبيح ؟

ويمسك (فهد) بيد أمه :

ـ ياما ، سآتيك بولدك ، سآتيك به ولو حرقت الحكومة كلها .

ويعود الشيخ علي الى القول بصوت كالقضاء والقدر :

ـ صبيح ذهب الى ملاقاة ربه .. ولن يستطيعوا شيئا من اجل دفنه ، جسده للتراب والدود . ما اهمية ان تحمله الينا ..

وتصرخ أمه :

ـ لم يغسل جسده لملاقاة ربه ، لم يكفن ، ولم يحمل على الاكتاف ولم يودع في تربة أجداده .

ـ اسكتي يا امرأة . لقد غسله دمه . والشهيد ثيابه كفنه ، والارض التي يموت عليها تصبح قبره ، واما روحه فللسماء العالية !

وينطلق فهد وهو يغلق باب الحجرة وراءه :

ـ انا اعرف اين اجد أخي وسآتي به !

* *

ومنذ ان امتلا فمي بالمائع الحار ، وغشيت عيني غشاوة حمراء ، ثم سوداء ، ثم لم اعد أرى شيئا ، وبصقت المائع الحار ثم امتلا فمي به . ثم احسست أن الهواء انقطع عن رئتي ، وان صدري اصبح شيئا يابسا يشدني الى اسفل . ومنذ ان اختنقت هكذا بدمي وسقطت على أرض الساحة امام المعمل ، وانا أنقل من مكان امدد عليه ، الى مكان آخر امدد عليه .

ولقد اتفقنا أنا و (محمود) و (وفيق) أن نمسك بأيدي بعضنا وان ندفع بالصفوف امامنا . وعندما ارتفعت اناشيدنا وتعالت شعاراتنا ، وهدرنا جميعا من البوابة الكبيرة ، تساقطت فوقنا آلاف الطلقات . ولكن الصفوف لم تتوقف ، بل تابعت هديرها . وكذلك لم تنفك أيدينا نحن الثلاثة . ثم وصلنا الى الساحة ، فطال صفنا ، وتكاثفنا عشرات من الاخوان . وهكذا اندفعنا الى امام نردد اناشيدنا وشعاراتنا . واصيب بعض من في الصف ، ولكن الصف بقي حاملا اياه . وشد على يدي (وفيق) ، وسمعته يهمس لي من خلال الطلقات والصياح :

ـ ليت عائشة تراك الآن . انها لن تجرؤ على رفضك ثانية يا صبيح . انت لم تعد ابن الشيخ علي ..

وقاطعه وانا اشد على كتفه :

ـ أبي لا يرتشي يا وفيق . ولكنه اذا لم يقبل بما يريدونه منه عزلوه من امامة الجامع ..

ـ هكذا اذن لن يذهب أحد الى جامع الحي .

ـ بل لا بد أن يذهب الرجال جميعا ليسمعوا هناك الى خطباء آخرين ..

ـ ولن نكون هناك ..

واحسست أن الايدي بدات تتراخى ، وأن الاكتاف تنفصل ، وان من بقي سائرا من الصف ، سوف يسحب معه أكثرية من الذين سقطوا .. وان وفيق ومحمود ، لن يستطيعا جري الى أبعد ، وانني لا بد ساقط ههنا .. وصرخت :

ـ وفيق .. محمود سنبقى معا !

ولقد هدا كل شيء منذ زمن . ولم نبق معا أنا ومحمود ووفيق . واستلقيت طويلا على ارض الساحة امام البوابة الكبيرة . هذه الساحة كم قطعتها جيئة وذهابا منذ ان انضممت الى هذا المعمل قبل خمس أو ست سنين ، لم اعد أذكر تماما . ولكنني أعلم أنني بدات بالعمل منذ أن رفضت متابعة دراسة الثانوي في المدرسة الشرعية حسب رغبة أبي . ولقد تمنيت دائما أن أصبح واحدا من رجال الحي الذين يمضون كل صباح بالبستهم الكاكية والزرقاء الى المعامل ثم يعودون عند المساء ، ويعقدون جلسات السمر في مقهى الحي .

واحسست أن وفيق ما زال الى جانبي . ولقد طالت استلقاءتي هكذا .. وجهي الى الشمس ، والدم مجمد بين شفتي . ويا صديقي ان احدا ، لن يضع منديلا على وجهينا . شمس تموز تنهمر على جبهتي . ولكنني لم اعد أشعر بلهيبها . يقولون انني قتلت .. والمقتول لن يحس بشيء . ولكن ما بالي هكذا ما زلت أعي أنني موجود ؟ ان الاحذية الحديدية تقترب منا . لقد أصبحوا بيننا .. ورغم ذلك فان فوهات بنادقهم لا ترتفع فوق رؤوسنا الا لتطلق نيرانها مرات ومرات ، على اجساد لم تعد تالم للرصاص . انهم يدبون حولنا دون ان يجسروا على التخلي لحظة عن فوهات بنادقهم موجهة الى موتى . أحسب ان كلامك يا وفيق تحقق الآن . انك تقول أن الجنود المأجورين هم أجبن من أن يمتنعوا عن القتل ساعة يواجهون الخطر . ليتني استطيع أن أتحرك ولو لحظة كيما ادب الرعب في قلب هؤلاء الذين تصفحت احذيتهم ورؤوسهم بالحديد ، واستطالت اذرعتهم بفوهات النار . ومع ذلك ، أصغ اليهم كيف يتلصصون السير بيننا نحن الموتى ، الملقى بنا على الارض ، بعضنا وجهه للشمس ، بعضنا وجهه للتراب .

اصغ يا وفيق ، ان خطوات اقسى تقترب منا . الاخرون يتوقفون. انه يقول أشياء :

ـ هل تأكدت من موتهم جميعا ؟.

ـ نعم سيدي !

ـ أليس بينهم جرحى ؟

ـ بعضهم سيدي !

ـ وماذا فعلتم بهم ؟

ـ لا شيء سيدي ، اننا بانتظار الاوامر !

ـ سوف يموتون على كل حال قبل ان تأتي سيارات الاسعاف .

ـ سيدي .

ـ نعم ، قل ما بالك ترتجف هكذا . اخفض بندقيتك عن وجهي .

ـ عفوا سيدي . ولكن .. سيدي . هل نترك القتلى في الساحة؟

ـ احرسوهم جيدا . ربما عاد رفاقهم ليأخذوهم . لا نريد مآتم . سوف نتدبر امرهم بعد قليل .

ويا أخي وفيق . انك تصدق ثانية . انهم يتكلمون عربية هجينة . انهم ليسوا عربا . انهم من أولئك الذين آويناهم طويلا في بلدنا . ولكن رئيسهم ليس من مدينتنا ايضا . ان له لهجة ذكرتني بأبناء الاغنياء ، بابن صاحب المعمل .. فاتح بك .. اتذكر ما قال لنا عندما اتيناه لنبلغه قرار الاضراب العام .

ـ اذهبوا وقولوا لاولاد النور هؤلاء ان خرافة الاشتراكية قد انقرضت الى الابد . كيف يحلم أولاد الزط بأن يسرقونا اموال آبائنا واجدادنا ، ألا يكفي أننا أوجدنا لهم عملا ، وأننا نطعمهم من لحمنا ورزقنا ؟. هاهم يريدون مقاسمتنا الارباح .. تصوروا أنني اقتسم مالي انا وخدمي . اذهبوا وقولوا لهم أن جوابنا على اضرابهم سيكون الرصاص . نحن والحكومة نعتبرهم خونة . انهم عملاء مأجورون لبلد أجنبي . ولسوف ينالون جزاء خيانتهم !

ولقد أتت السيارات . كدسونا فوق بعضنا . انهم يحسبون أننا نألم . ينسون أننا موتى ، وأننا بدون هوية الآن ، وأن أجسادنا سوف تنفسخ عما قليل . وأن المشكلة بالنسبة اليهم انهم لن يستطيعوا هربا من رائحة التفسخ . أليسوا حراسا لنا ، ألا يخشون أن نختطف من قبل رفاقنا . انهم لا يريدون أن نموت علنا . والمدينة صامتة يا وفيق. احس بك قربي . ان أحدا لا يبحث هذه الليلة عن كأس عرق . الشباب وراء الابواب يعدون خطة جديدة للصباح الآتي . ان عائشة سوف تفتش عني طويلا هذه الليلة . وأبي الشيخ سيقرأ الآيات على روحي مجانا . ولكنك تعلم أن لي اخا هو (فهد) ، سيأخذ بثأري يا وفيق . لم تجتمع به ، ولكنه هو وقبضة من زملائه مزق منذ (الخريف) عشرين علما شعوبيا من فوق الصاريات . أتذكر قصة العلم العربي الاخير الذي ارتفع عدة أيام فوق قبة الجامع ؟ لقد عجز الشعوبيون عن انزاله. وكانت

الفكرة لاخي فهد . فبعد ان رفعوه فوق القبة .. تصور ماذا فعلوا . لقد دهنوا القبة بالصابون . فجاء الشعوبيون لينزلوه ، فكان نصيب كل واحد منهم أن يتزحلق ، وينكسر فيه عضو .. حتى حسب هؤلاء أن الشياطين تحرس القبة . لقد حاولوا اخيرا ان يثقبوه بالرصاص . ولكن بقاياه ما زالت ترفرف هناك فوق القبة .

ها نحن نصل الى مكان ما . انهم يحملوننا من رؤوسنا واقدامنا ويقذفون بنا فوق بعضنا ثانية . أما زلت قريبا مني يا وفيق ؟ حسنا ، لا بأس ، لم تعد للمسافات قيمة . اني أفكر فتعلم انت بافكاري مباشرة. وهكذا فللموتى ميزة على الاحياء. لا حاجة لهم لالسنة او آذان أو عيون. فليس لاحد قدرة للتلصص عليهم . هناك من يتحدث بالقرب منا :

ـ المشكلة أنك لا تستطيع ان تثق بأحد ، فقتلى الخريف ، كشفت قبورهم خارج المدينة ، ووجدت صباح احد الايام مفتوحة وقد فارقتها الجثث .

ـ ان الطبيب المشرف على المستشفى الحكومي يرفض ادخالهم الى عنبر الموتى ، فليس لهم أوراق تثبت أنهم دخلوا المستشفى كمرضى .. ثم ان هذا العدد الكبير لا مكان له ، ولا يمكن اخفاؤه .

ـ قلت لك أننا يجب أن نبتعد عن المعاملات الرسمية بقدر الامكان..

ـ ويا سيدي فان مكتب دفن الموتى في المحافظة يرفض أيضا استلامهم .

ـ وأنا قلت لك ألا تتصل به ..

ـ ويا سيدي لا بد من اثبات الوفاة عند الطبيب الشرعي .

ـ وأنا قلت لك أيها الغبي دعك من الرجال الرسميين .

ـ ويا سيدي ان أحدا من عمال الدفن لا يقبل بالتعاون معنا في هذه المهمة ..

ـ وانا قلت أيضا أنه ينبغي ألا يعلم أحد من هؤلاء بالامر .

ـ ويا سيدي نحتاج أيضا الى تثبيت الوفاة لدى سجل النفوس.. فالناس يولدون ويموتون ولا بد أن تعلم الحكومة بذلك .

ـ وأنا قلت لك أيها التعس انه لا الحكومة ولا الناس يجب أن يطلعوا على هذه القضية .. فهؤلاء لم يولدوا ولم يموتوا ..

ـ تعني يا سيدي أنهم لم يوجدوا قط ؟ ولكنهم ها هم اولاء مكدسون أمامنا .

ـ أنت غبي وكان علي ألا أفرزك لخدمة مكتبي أبدا .. انت غبي أحمق .

ـ نعم سيدي ... اذن ماذا نفعل بهم ؟

ـ سأبحث ذلك مع رئيسي أنا .. امض الآن من وجهي !

* *

ـ سيدي لقد أصدرت الي الاوامر بالضرب ، فضربنا . ولكننا لسنا ممن تعلموا دفن الموتى .

ـ من قال لك اقتل !

ـ أنت يا سيدي

ـ أنت حمار

ـ نعم سيدي .

ـ قلت لك : اضرب : اضرب . لم أقل : اقتل .

ـ ما الفرق ياسيدي ؟

ـ اخرس . هل لديك أوامر مكتوبة ..

ـ كلا !

ـ اذن أنت المسؤول وحدك .

ـ ماذا يا الهي ؟

ـ لا تخف هكذا سريعا يا صديقي . أنت مسؤول هذا صحيح . ولكن تختفي مسؤوليتك ، عندما تختفي هذه الجثث ..

ـ أين أخفي كل هؤلاء القتلى ما دامت الحكومة كلها تتنصل من مسؤومية الدفن ؟ القاتل يعجز عن اخفاء جثة واحدة ، فكيف تريدني أن اخفي عشرات القتلى ..

ـ ولكنك لست قاتلا ، أليس كذلك ؟

ـ انني لن ادفن هؤلاء الا بموجب أمر رسمي ، والا فساصبح مسؤولا عن خمسين ستين جريمة قتل . ساصبح قاتلا بالجملة !

* *

و يا اخي وفيق ، ان الاحياء يخشون الاموات ، هذا ماقرأته مرة لاحد كتاب الشعب . ولذلك كان اول اختراع ابتكره البشر ، هو ان يخفي الحي الميت تحت التراب ، ولكن من حسن حظنا ان احدا لايجرؤ على دفننا . الا ترثي لهؤلاء ؟ لقد قتلونا بسهولة عجيبة ، حتى انني لم احس حقا كيف كنت حيا وتحولت الى انسان مقتول . وبعد قليل سوف تزكم الانوف روائح اجسادنا . فاننا نتفسخ بسرعة في هذا الحر ، في هذا القبو ، ونحن كوم فوق كوم .

مازال بعضهم يأتي ويمضي ويبحث مسألة القبور التي سنصير اليها ، ولكن هؤلاء المجانين يعتقدون ان الموتى يخشون الدفن ، ولهذا فهم لايعرفون بعد كيف يحزمون امرهم ، أيبقوننا هكذا في العراء ، ام يسعون الى حفر حفرة بعيدة ، لابد ان يكشفها ابناء حينا ، انهم لايريدون ان نموت علنا .

وابي الشيخ سوف يسعى لان يصلي على ميت لن يجده ابدا. انه رجل ناهز الستين ، ولكم صعد المئذنة ونزلها منذ عشرات السنين . ولكم وقف في الناس خطيبا . وتطوع دائما لاعطاء التعاويذ والادعية المكتوبة مجانا لنساء يردن ان يحملن ، ولنساء يخشين هجران الازواج ولنساء يردن اناثا او ذكورا .

وانه لرجل طيب ياوفيق . ولقد كان قديما يقتصر في خطبه على ترداد الايات وبعض الاحاديث والمواعظ ، وقد حفظها عن ظهر قلب منذ ان اتم علمه على يد الشيخ المتولي الكبير رحمه الله ، وكان لابد في كل خطبة من يدعو ان يحفظ الله الحاكم وان يفني الله العدو ، وان يجير الله المؤمنين من كيد الكائدين ، ومعصية العاصين وشر اللصوص والعابثين . ولقد حدثني بعض كبار الحي ان ابي الطيب وقف مرة خطيبا عام « ١٩٣٦ » ، ايام الاضراب الكبير وشتم المستعمر الفرنسي ، واهان الحاكم الفرنسي .. وقد قتل اناس كثر بينادق المحتلين ، اذ كان ايام زمان احتلال ياصديقي وفيق ، وكنا نحن بعد اطفالا صغارا جدا . وكان الناس يصرون ياصديقي ، ايام الاحتلال ، ان يخرجوا بمظاهرات كبيرة. وكان الناس تتشابك اذرعتهم وترتص كتلهم ، ويهاجمون فوهات البنادق وزحف الدبابات . وكان حملة البنادق لايتكلمون اللغة العربية ، او اذا تكلم بعضهم فان لهم لهجة عرجاء .. مثل هؤلاء الذين يحيطون بجثثنا اليوم . وكان الناس يصرون في صباح اليوم على اخراج الذين قتلوا بالامس في جنازات كبيرة . والجنازات ، يا صديقي ، لا تلبث حتى تنقلب الى مظاهرات رهيبة . لهذا كان الناس عام ١٩٣٦ ، يصرون على حمل موتاهم . وكان « الاحتلال » يسعى دائما الى اخفاء الجثث . كان ذلك في شتاء عام ١٩٣٦ ، ايام الاضراب الكبير . ونحن اليوم مازلنا في عام ١٩٣٦ ولكن صيفا .. ولا فرق بين صيف وشتاء في ايام الاحتلال يا صديقي .

واخبرني ابي ياوفيق ان الاحتلال كان يسمي « القتلى » بالمجرمين المتامرين . وكان يسمي الناس المتظاهرين بالعملاء المأجورين . وكان يسمي زبانيته بالمنتصرين الوطنيين .

اسمع لغطا حولنا ، هناك من يتحدث عنا ياوفيق :

ـ تشجع ياهذا انت ورفاقك ، انظر الى عناوين الصحف التي ظهرت اليوم بعد معركة الامس ! انهم يقولون عنكم انكم الابطال الذين « قضيتم على الفتنة في مهدها » ، الاشاوس « الذين قتلتهم عملاء الوحدة والاشتراكية » . سوف آتيكم بمذياع لتسمعوا الى كبار اهل العاصمة وهو يخطبون مفتخرين بكم . الادباء والشعراء والاعيان والصحفيون كلهم معكم .. فلقد انقذتم البلاد من التخريب ..

ويجيب صوت كالح :

ـ ولكن كيف سندفن هذه الجثث ؟

ـ بعض « البكوات » في المدينة ارسلوا اليكم عشاء فاخرا لاياكله الا الملوك ..

ـ روائح الجثث اصبحت لاتطاق .

ـ اشتروا لكم ايضا جهاز المذياع المتنقل هذا لتسمعوا ماذا تقول عنكم اعظم اذاعات العالم مثل لندن وباريس وتل ابيب و ...

ـ الذباب ياسيدي يحط على الميتين ثم يلسعنا هكذا .. انظر جيوش الذباب والهوام تغزونا .

ـ في كل مكان انتصار لكم .. اما سمعتم اخبار بن بيللا ، سوف يطرد من الجزائر .

ـ ولكن يقولون ان الجزائر كلها ستحارب ثانية من اجل بن بيللا .

ـ المستعمرون العرب يقولون هكذا . لاتخافوا من الذباب ،سناتيكم بالـ « د.د.ت » .

ـ ومتى ندفن هؤلاء ؟. نريد حراسة مشددة . فنحن نسمع من حين الى حين حركات مريبة حولنا .

ـ سنعزز حراسة الموتى .

ـ سوف ياتي اهلهم ويخطفونهم منا .. ماذا نفعل ، هل نقتل اهلهم كذلك .

ـ طبعا .. ولماذا تحملون هذه البنادق اذن؟

ـ انهم شرسون .. ونحن نختنق هنا بروائح موتاهم .. وهذا الذباب اللعين ، ماذا نفعل به ؟

ـ الملوك وكبار الاغنياء معكم فماذا تخشون .. أمن الذباب يا ..

ـ سيدي قيل لنا .. ان القتلى اذا بقوا طويلا هكذا بدون دفن فلسوف تتحول ارواحهم الى شياطين وجان .. وسوف يشلون حراسهم.

ـ قلت لكم لاتخشوا شيئا ، فان جميع عظماء المدينة يبحثون الان قضية هؤلاء . سوف يقررون متى واين يكون الدفن .

ـ سيدي لماذا لايأتي بعض مندوبيهم ويقفون معنا للحظات هنا .. لابد ان يسرعوا بعد ذلك .

ـ ماذا تقول ايها الصعلوك .. اتريد ان يصبح مصيرك كمصير ذلك الجبان الذي رفض ان يصعد فوق القبة ليمزق علم العرب .. انه الان ملقى به في احد الاقبية .. له وجبة من التعذيب الدسم كل صباح وظهر ومساء ..

ـ العرب ، الجرب .. من الخليج الى المحيط . ولكن سيدي سوف نختنق نحن وهذا الذباب وهذا الحر وهذه القناطير من الجثث المتفسخة.. العرب من الخليج الى المحيط .. عليهم اللعنة ، انهم يموتون .. ولكن من يستطيع دفن كل هؤلاء؟.

* * *

الذين ماتوا هذا الصباح ، لم يجدوا بعد مثواهم في القبور . كما ان احدا من اهلهم لم يعثروا على جثة من جثثهم . وكان زقاق الحي طويلا ضيقا . وهذا المساء تكدست بين جداريه روائح الحر والظلام والصمت الكئيب . وكانت نسوة ، كالكتل السوداء الضبابية ، ينتقلن من باب الى اخر . وكان الرجال يتجمعون عند مفارق الازقة الفرعية . والشيخ علي يقف على رأس جثة طويلة مغطاة الوجه ، يقرأ بعض الادعية، ولم تستطع الام الا ان تقترب من فهد لتسأله وهي تكبت رعبها وبكاءها :

ـ فهد ، هل هذا .. اخوك ؟

والشيخ علي لاينظر الا الى اسفل . وحشد من النسوة يملأن عتبة الحجرة الكبيرة . والصمت الرهيب المديد ينتشر كقبة فوق الحي الصامد وحده في مدينة عتيقة واسعة في اقصى الشمال من الارض العربية .

وتسأل ام صبيح ثانية :

ـ فهد .. هل هذا .. اخوك ؟

ويتابع الشيخ علي تمتماته بصوت لايكاد يسمع . لاينظر الا الى اسفل . والنسوة ، كل النسوة من ام واخت وزوجة وجدة لمقتول قد اجتمعن من اطراف الحي الكبير حول جثة احد المقتولين في حجرة الشيخ علي . والرجال ينتظرون بزوغ الفجر .

والمرأة الام ، والاخت صالحة تحيطان بالجثة وبفهد . وصالحة تسأل ايضا :

ـ فهد .. هل هذا .. اخي ؟

* * *

ومن افواه الحي الكبير تدافع الناس في عام « ١٩٣٦ » وقد حملوا جميعا تابوتا واحدا عليه غطاء ابيض من الحرير الحلبي المشهور. وكان الفصل صيفا لاشتاء .. هذه المرة . وكان هو شهر تموز .والشمس عمودية باهرة النور كثيفة الحرارة . والناس صمتوا وحملوا التابوت الوحيد . والناس يعلمون ان قتيلا واحدا قد سرق من مخزن القتلى . وان جميع الاباء والاخوة لجميع القتلى منذ الخريف الماضي يشيعون اليوم قتيلا واحدا .

وفي الساحة الكبيرة ، وقف الشيخ علي اماما بالناس جميعا ، بعد ان عزل من امامة الجامع الرسمية .. فاصبح امام ساحات عامة .وعندما انتهت الصلاة ، رفعت الاكتاف تابوتا اصفر لمقتول مجهول ، سرقه فهد ورفاقه من مخزن القتلى يحرسه رجال بلا وجوه يختنقون بروائح التفسخ ، ويجنون بطنين الذباب ، ولا يدرون متى يدفن القتلى .

وكان ذلك ايام الاحتلال ، وكان جنود الاحتلال يحتلون المفارق المؤدية الى جبانة المدينة . ولكن الناس الذين راحوا يتنافسون لحمل التابوت على اكتافهم ، كانوا يسيرون باتجاه واحد . وكذلك كان الشيخ « علي » في مقدمتهم ، بعد ان رفض رشوة الدعاء بدوام الحاكم وعزه، وتسفيها بالعرب من الخليج الى المحيط .

وكف الناس عن سؤال بعضهم : ترى من يكون القتيل الوحيد الذي يحتل التابوت المحمول على الاكتاف والاعناق ، والذي تهدر وراءه الوف الرؤوس المطرقة الصامتة .

وعلا صوت الشيخ علي فجأة ، لتردده الحناجر من ورائه :

ـ لا اله الا الله والشهيد حبيب الله ..

ـ لا اله الا الله والشهيد حبيب الله .

وكانت الحراسة مشددة جدا ذلك اليوم حول مكانين ، المكان الذي كدست فيه عشرات من الجثث المقتولة منذ ايام ، والتي سرقت منها جثة مساء الامس . ومكان اخر يتحلق فيه حول مائدة مستديرة : زبانية ومذيعون وحكام وصحفيون وخبراء مصارف ومحترفو تعذيب ، وتجار مجازر ، وملوك وسفراء ، واشخاص وشيكات ممهورة بلا ارقام ، واشخاص حمر وزرق وشقر ، اقزام ولا عملاق الا في مخيلتهم ، ينذر بالرعب والويل .. ويقتل ويحيا الاف الوجوه والقلوب والسواعد كل يوم من المحيط الى الخليج .

وصاح الشيخ علي ، وقد قذف منذ قليل بعمامته ، ثم يقذف الان بجبته ، من شدة الحر :

ـ ياشباب الى المقبرة !

وكان ذلك ايام « الاحتلال » ياصديقي في عام ١٩٣٦ ، ولكن صيفا ولا شتاء ، وفي تموز ، وفي بلد صحراوي يقع في اقصى الشمال من بلاد شعب اسمه العرب . وكان « فهد » قريبا من النعش . ولم يعد يسأله احد : من المقتول ؟

مطاع صفدي

طبعت على مطابع

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١